



المقصود بالتدین المغشوش أو التدین المصلحی هو الذي لا يتقدی بالمقاصد الشرعیة التي أُنجزت لأجلها الکتب وأرسلت الرسل المتمثلة في عبادة الباری سبحانه، والعمل لأجل الفوز بالمقام العالی في يوم المعاد، وتوظیف النصوص الشرعیة في تحقیق العبودیة الكاملة لله تعالی، والنأی عن مواطن الشبه واستخدام الدين سلماً لقطف الدنيا من حطام الدنيا.

فالتدین المغشوش هو الذي يقدم المصلحة الدنيوية على المصلحة الأخرویة، والمصلحة الشخصية والجهویة على المصلحة العامة من غير مبرر شرعی، وهو الذي يصلح ظاهره لأجل الناس ويقعی باطنھ، وهو التدین الذي بيدو صاحبه قدیساً أو «ملاکاً» أمام الخلق، ويصبح «إبليسًا» لعيّناً أمام الخالق.

وصاحب الدين الكاذب لا يقر له قرار، وليس له حد يقف عنده، فالمحرك الرئيس له هو مصلحته الخاصة، فدرجة تدينه تزداد أو تنقص كلما غلا أو رخص هدفه المنشود، وشعاره الدائم هو «حيثما كانت مصلحتي فثم ديني». فصاحب الدين المغشوش لا يعدم حيلة في تزيين عمله، وتجميل صنيعه، فتراه تذرع عيناه في مجالس العلم والوعظ، وتبدي أضراسه في مجالس اللهو، تجده مناصراً للظلمة أو مؤازراً للمظلومين، لأنه مستعد لتوظيف الدين والعلم لكل المتناقضات ما دام يصب ذلك في مصلحته، ولهذا فحين سُئل شميط بن عجلان رحمة الله: هل يبكي المنافق؟ قال: «يبكي من رأسه، أما من قلبه فلا!».

فالمنافقون في زمن النبوة كانوا يلجؤون إلى الدين المغشوش لمارب في أنفسهم، وقد أظهرت عوراتهم الآيات القرآنية: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۚ ۱ أَتَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَاحًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۲ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: ۱ - ۳]، كما فصلت أخبارهم وأوصافهم وفضحت أخلاقهم سورة التوبة التي سماها بعض العلماء السورة الفاضحة. وأصحاب الدين الشكلي لا يرون أي غضاضة في التهام أموال غيرهم باسم الدين والتزهد، وفي الذكر الحكيم: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهَبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: 34]، وهذا النوع من الناس آفة في الدين والدنيا معاً، وفيهم يقول الشاعر:

وهل أفسد الدين إلا الملوك
وأصحاب سوء ورهاهامها
في باعوا النفوس ولم يربحوا
ولم تغل في البيع أيامها

ولا يستحيي أصحاب الدين المغشوش من الاعتراض أو توجيه التهم إلى أهل العفة والنزاهة ولو كانوا أنبياء - عليهم السلام -، فهذا الخارجي وأبو الخوارج ذو الخويصرة التميي يعترض على قسمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في غنائم حنين ويطالبه بالعدل - وهو العادل -، فلا يزيد الحبيب صلى الله عليه وسلم بأن قال: «رحم الله موسى فقد أوذى أكثر من ذلك فصبر».

والغريب أن صاحب الدين الكاذب قد يعرض نفسه للمهالك، وعلمه للنشر، وماله للإنفاق؛ مع سوء الطوية، ويكون أول من تُسرع بهم جهنم يوم القيمة، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضي عليه يوم القيمة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمه وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جoward، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقى في النار»، وفي الترمذى في هذا الحديث: ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسرع بهم النار يوم القيمة».

وتظهر آثار الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة أصحاب الدين المغشوش فيحملون أطناناً من الحسنات، ولكن تخفي وراء ذلك جبال من الموبقات والسيئات، فلم تكن الطاعات تحجزهم عن ركوب الخطايا، فهم أولياء فيما يظهر

لناس، وظلمة فيما يختفي من أعمالهم، ومصداق ذلك قول المعمصوم صلى الله عليه وسلم: «المفسس من أمتى من يأتي يوم القيمة بصلاته وزكاته وصيامه، وقد شتم هذا، وقدف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار».

وصاحب الدين الكاذب يدعو ويحث الناس على فعل الخير واجتناب المحرم، ولكن لا يُخضع نفسه لهذا القانون، لأن شعاره «خذ علمي ولا تأخذ عملي»، ومصداق ذلك قول الحبيب المعمصوم صلى الله عليه وسلم: «يُ جاء بالرجل يوم القيمة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت أمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

ولا يتورع صاحب الدين المغشوش في القول على الله بغير حق ما دام هذا المسلك يدر عليه بالنفع الدنيوي، يقول ابن القيم في مثل هؤلاء القوم: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإن الزامة، لأن أحكام الرب - سبحانه - كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرئاسة، والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرئاسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهم ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتفتف الشبهة والشهوة، ويثير الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به، ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبيه» (الفوائد: ص ١٤٥).

وصاحب الدين المغشوش قد يقوم ببناء مسجد أو مدرسة أو مرفق حيوي، ولكن مراده ليس وجه الله تعالى واليوم الآخر، بل له شأن وأمر آخر، وقد قَصَّ علينا القرآن الكريم خبر أبي عامر الفاسق وتظاهره بالدين الكاذب وقيامه ببناء مسجد للضعفاء وأبناء السبيل، بحسب زعمه، وهدفه الحقيقي هو الكيد والمكر للدعوة، ففضح الله تعالى أمره وسمى ما بناه مسجد الضرار، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفُرًا وَتَنْفِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَانُوا نَّاسًا} [التوبه: 107]، ثم قال تعالى: {لَا تَقُولْ فِيهِ أَبْدًا لَمَسْجِدًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُولَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} [التوبه: 108].

ولقد عاب عدد غير قليل من علماء الإسلام أمثال هؤلاء الحمقى الذين يوظفون دينهم لأجل اللقطة ويسترزقون به، حتى إن الحكم روى في تاريخه عن ربعة الرأي أنه قال للإمام مالك: يا مالك من السفلة؟ قال: «قلت من أكل بيته»، فقال لي: ومن أسفل السفلة؟ قلت: «من أصلح دنيا غيره بفساد دينه».

فأصحاب الدين المغشوش موجودون في كل زمان ومكان، ويطلون رؤوسهم أو يختفون ويتوارون عن الأنظار بحسب مصالحهم، ويجيدون التلوي والتقمص بقوالب مختلفة ومتعددة، فهم آفة الأمم، وسبب الانهكامة والهزائم التي تعاني منها أمّة الإسلام في الأزمنة المتأخرة.

فالواجب على كل شخص أن يتقى الله تعالى وأن يكون هدفه ورأس ماله الحقيقي إخلاص العبادة لله تعالى وأن يكون شعاره: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَالًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110]. وفقني الله تعالى وإياكم لما فيه صلاح ديننا ودنيانا.

